هل في وسع التقانة استعادة موسوعية المعرفة؟

د. سر الختم عثمان

كنا صبية في أول الشباب أو قل – إن شئت – كنا شبابًا في أواخر الصبا حين التحقنا متطوعين بإذاعة القرآن الكريم من أم درمان ، أم الإذاعات الإسلامية بالسودان ، وكان يديرها الأستاذ السر محمد علي برفقة محمد عبد الكريم المجذوب ابن عم عبد الله الطيب المجذوب ومحمد حسن محمد علي ومحمد توفيق أحمد صاحب ثمرات الإيمان . وكانت تتبع للإدارة الثقافية بالإذاعة القومية . والتحاق أمثال من هم في سنّنا بتلك الإذاعة في سبعينيات القرن المنصرم كان التحاقًا لا يخلو من التمييز الإيجابي لطغيان البرامج المنوعة على البرامج الإسلامية أو الثقافية ذات الجدية والصرامة اللتين لا تخلوان من التجهّم ينظر شباب ذلك الجيل الذي كان مغرمًا بالمستديرتين الطبل والكرة .

وكانت مهمتي في البدء تتلخص في إعداد البرنامج اليومي وتنسيقه من القرآن عند الافتتاح وحتى الختام وما بين ذلك من برامج ومدائح ومقابلات ومسلسلات . والتنسيق ليس أمرًا يسيرًا كما يتبادر إلى الأذهان خاصة إذا ألقي به على عاتق شاب إذاعي تحت التمرين ثم يرفع البرنامج إلى مدير البرامج ومن ثم إلى نائب المدير للبرامج الموجهة والإذاعات المتخصصة ليُبْدِيا وجهات نظرهما في اختيارات المواد ومدى الانسجام الموضوعي بين وحدات البرامج المقدمة في اليوم الواحد ، وعدم تضارب ذلك مع ما يقدم في البرنامج العام (الشبكة القومية حاليًا) والإذاعات الأخرى التالية للمدير العام أو تلك التابعة لنائبه للإذاعات الموجهة والمتخصصة.

مديرًا مستمعًا

ولك أن تتخيل مديرًا مستمعًا راصدًا بدقة مثل محمد خوجلي صالحين أو نائبًا له ناقدًا حصيفًا لتذوقنا الفني في بناء برمجة اليوم وتنسيقه مثل محمود أبو العزائم ، ومديرًا للبرامج ساخرًا لاذع الملاحظة مثل محمد عبد الكريم المجذوب وكان علينا أن نفوز برضاء الرجال الثلاثة . وأنّى لك ذلك فالناقد بصير . ثم من بعد التنسيق علينا متابعة الإشراف على إنتاج برامج الإذاعة المتخصصة في الحديث والفقه والسيرة والتفسير إلى جانب القرآن الكريم طبعًا . وكان من زبائننا من شباب العلماء أمثال علي أحمد محمد بابكر ومحمد عثمان صالح وعبد الجليل النذير الكاروري وعبد الجبار المبارك وصديق محمد مقبول وعلي يوسف والحبر يوسف نور الدائم وسر الختم الحسن عمر وغيرهم وفيما بعد هؤلاء ظهرت أسماء أخرى من أمثال حسن أحميدي (حسن أحمد حامد) ومحمد علي الطريفي . وكانوا جميعًا – رحم الله الأحياء منهم والأموات – خلفًا ملؤوا ذلك الفراغ الذي تركه عبد الله الطيب وعوض الله صالح ومحمد عبد الكريم الأزهري في الإعلام الإسلامي المتخصص في التعليم والفتوى.

أولى المهام

وأذكر أن أولى المهام التي كلفنا بها أنا وصديقي المذيع المهاجر الهادي مبارك (وهو ابن أخت الدكتور أبي بكر عوض . رحمه الله) بأن قمنا بنقل الإنتاج القادم من الكويت للمصحف المرتل والمصحف المعلم من إسطوانات الإبرة الكلاسيكية إلى الأشرطة المغناطيسية التي صارت الآن هي الأخرى من تقنيات متحف التكنولوجيا الصوتية والبصرية . فكنا ننقل من الأسطوانة إلى الشريط من خلال المازجة (Mixer) وعلينا أن نتابع التلاوة بدقة من المصحف المطبوع حرفًا بحرف .. لا لأن الشيخ محمود خليل الحصري على جلال قدره وقدرته سيخطئ ونحن سنعرف هذا الخطأ ولكن

لأن الأسطوانة لربما قد علق بها من غبار به ذرات قد تجعل (الإبرة) تقفز فينقص بذلك حرف أو حرفان من القرآن.

وكنا نتناوب يوميًا في هذا النقل المبارك الذي كان أول ثمراته أنْ قرأنا القرآن كله على أسطوانة الحصري بوجهها مرة بطريقة التعليم والثانية بطريقة الترتيل برواية حفص عن عاصم بن أبي النجود.

ولما كان مدخلنا كريمًا إلى الإذاعة برفقة أسطوانات الشيخ الحصري فقد ذاع صيتنا بين الزملاء وصار مسمانا بينهم (مولانا)، والحقُّ أن مولانا الكريم الجليل قد تولانا بالفعل في ذلك الوسط الإعلامي الفني الرياضي الدرامي الغنائي الذي توسعت فيه حدود الإباحة وضاقت فيه حدود الكراهة وانعدمت علائم التحريم جزئيًا . وليس كليًا . ورغمًا عن ذاك فقد كان الناس في ذلك الوسط في حال براءتهم الأصلية ، محبتهم لبعضهم بعضًا طاغية واحترامهم فيما بينهم وفير رجالاً ونساءً . لا تبدو البغضاء منهم لإخوانهم أبدًا ، والتوادُّ ظاهر لكل عيانًا في التعاون اليومي الذي هو مبدأ للمهنية والتي لا يمكن إنجاز أعمالها إلاّ بروح الفريق إذ ليس هناك عمل فردي في الإنتاج الإذاعي بشقيه المرئي والمسموع أبدًا. بل ويستحيل ذلك . ولأن الإذاعة مؤسسة ثقافية تعليمية وفكرية عريقة التقاليد لم يكن ثمت من يسعى لأن يكون هو الأول على الآخرين . والمرجع للمراجعين فليس هذا ممكنًا إذ إن الزمالة المهنية تقوم على الكفاءة الإعلامية والحكم هو المشاهد أو المستمع . وليس مدير المحطة . إذ يسأله الجمهور قبل أن يسأله المسؤول عن كل من غاب عن أبصارهم وأسماعهم من أصحاب البرامج ومقدميهم.

التدريب الإذاعي

ولقد كان (التدريب الإذاعي) عملاً شاقًا تتدرج فيه من أستاذ اللغة العربية مثل عبد الرحمن الياس أو محمد صالح فهمي إلى أستاذ الإلقاء مثل فهمي بدوي الذي كان يعمل في البي بي سي ويريد راغبًا تطبيق مبادئ هيئة الإذاعة البريطانية في تقديم البرامج علينا ، ونحن كنا شباب بعدٍ في العشرينيات لا نرغب في تحكم تصنُّع الأداء الإذاعي القديمة علينا ، فلكلٍ منا هواه في تقليد كبار مذيعي العالمِ والسودان والوطن العربي.

وكان الكثيرون ينتقدون نمط إنتاج البرامج الإسلامية مثل اختصار هذه البرامج على تقديمها ضمن (موسيقا تصويرية) حزينة الإيقاعات وربما اصطحاب فقراتها لمقاطع من (الثلاثية المقدسة) لأم كلثوم مثلاً ويرى خبراء الإعلام الإسلامي أن البرامج الإسلامية يجب أن تحرر من قيود الإنتاج الإذاعي الترفيهي والمنوع لتوجد لنفسها نمطاً للإنتاج يراعي الأحكام الإسلامية في الموسيقا وحرمتها أو قل حرمة بعض أنواعها وكذلك مقاصد الشريعة في البرامج المنتجة . وظن الكثيرون أن إنتاج المسلسلات الإسلامية فيه تطور نحو إخضاع الشكل الفني الدرامي التمثيلية المصورة أو المسموعة لمقاصد إسلامية بملء ذلك بالمحتوى الإسلامي من السيرة أو التاريخ الإسلامي أو قصص الأنبياء أو نحو ذلك من النصوص الأصلية التي أخذت منها السيناريوهات. والناقدون لهؤلاء يرون أن المعلومات الأصلية والحقائق التأريخية تصاب بكثير من التحريف والأخطاء جراء إخضاع النص لسيناريو غير صادق في محتواه بسبب الانجراف وراء إرضاء المتلقي أو القبول بواقع مقتضيات الإنتاج الفني الجاذب من ديكورات وإسكسورات وأزياء ولغة حوار لم تحدث في أصل الرواية التاريخية للقصة الإسلامية وإنما أقحمت جراء رغبة المخرج والمنتجين في تقديم عمل يراعي جماليات الشاشة أو جاذبية المؤثرات السمعبصرية.

وإذا فرغنا من هذا الجدل شبة الأكاديمي في الإنتاج الإعلامي الإسلامي نعود للواقع التاريخي حيث كنا نحن في المسلسلات الإذاعية والمتلفزة عالة على الإنتاج الكويتي بمهارات الإخوة الشوام وإنتاج المصريين والشوام أيضًا ولم نستطع أن ننتج عملاً فنيًا يضاهي ما ينتجون لأسباب واقعية منها نقص الخبرات وضعف القدرات وتخلف صناعة الإنتاج الفني في السودان وغير ذلك من بواعث أخرى مثل الجغرافيا والتكوين السكاني والعنصر الإنساني ومقبولية إنتاجه لدى كافة العرب باعتبارنا أمة ذات خصوصية في التكوينين العرقي والثقافي مختلفة عن أمة العرب وهذا ربما يغضب بعضنا ولكنه واقع لا مهرب منه إلاّ إذا دُفنتْ الرؤوس في رمال الأماني الكذاب.

تجربة إذاعة القرآن الكريم

لقد كانت تجربة إذاعة القرآن الكريم من أم درمان رغم ريادتها تجربة أحاطت بها ظروف سياسية واجتماعية وثقافية لم تكن في صالح التجربة ولكنها أرست مع ذلك دعائم الإعلام الإذاعي الدعوي لأول مرة في السودان ، وكانت مدخلاً لثقافة تأسيس الإنتاج الإسلامي وتطوير الفنون الدعوية الصوتية والبصرية.

حيث كانت أوائل قصائد الإنشاد الديني ، والمدائح النبوية ، والتلاوات والتفسير والأحاديث المشروحة وغيرها شجعت الذين جاؤوا بعد أولئك العلماء الرواد لارتياد مجال الدعوة الإسلامية بالإعلام المسموع والمرئي بعد دخولها الإعلام المرئي عصر العولمة باقتران الإرسال الفضائي بالأقمار الصناعية بما جعل التلفاز الوسيلة الأولى بعد أن خرج من قوقعته الموغلة في المحلية إلى آفاق العالمية ، وتراجع الراديو من وسيلة أولى إلى المرتبة الثالثة بعد منافسة الإعلام الشبكي له واحتلال المرتبة الثانية بعد التلفزة.

ولكن الإعلام الإذاعي المسموع هو الذي أسس لكل فنون الإنتاج المرئي والمسموع كقواعد عمل وخبرات وأساليب فنية.

ونأتي لبيت القصيد في مقالنا هذا لنقول : إن علماء التربية وخبراء التعليم لم يتمكنوا إلى اليوم من تطوير الإعلام التربوي والاتصال الشبكي التعليمي والتعليم الإلكتروني ليكون تخصصًا مستقلاً داخل كليات التربية ، حيث انتقل التعليم من مجرد وظيفة من وظائف وسائل الإعلام إلى أن تكون مؤسسات التعليم عن بعد والتعليم المفتوح نظامًا تربويًا جديدًا في عالم الفضائيات والإنترنت والأقراص المرنة والمغنطة ووسائط الإعلام المحوسب لتضع كليات التربية خارج خارطة تكنولوجيا التعليم بصورتها القديمة وتقنيات التعليم التي كانت تدور حول عناصر الاتصال الشخصي والجمعي بين المعلم والمتعلمين ومخروط الخبرة والوسائل التعليمية بأسلوبها القديم الذي صار خارج تقانة العصر الذي نعيش فيه.

كليات تربية جديدة

نحن في حاجة إلى كليات تربية جديدة في كل العالم وليس في السودان والعالم العربي الإسلامي وحده. فأنموذج كليات التربية الذي ينتقد بقوة الآن من صناع القرار التعليمي في بلادنا وغيرها لم يدرك المنتقدون أنها تطوير لمعاهد تدريب المعلمين زرعت داخل البيئة الجامعية دون دراسة الجينات وخصائص الانسجام وعدم رفض الجسم الجامعي لكليات مهنية تريد أن تلغي بوجودها كليات الآداب واللغات والعلوم الإنسانية والعلوم البحتة بدعوى أنها تستطيع أن تقدم هذه العلوم مع طرائق التدريس المناسبة لها لتقدم للأجيال بأفواه خريجي التربية وأياديهم وأقلامهم. وعلى خريجي الكليات الأخرى أن يقبلوا بانفضاض سامرهم وانصرافهم إلى ركن شديد في المعرفة الجامعية . مع أنه من المستحيل جدًا الاستغناء عن كليات مثل كلية العلوم في تقديم العلوم الأساسية وتأسيسها والآداب في تقديم الدراسات الإنسانية واللغات.

علاقة الإعلام بالتربية

والسؤال ما المناسبة بين الإعلام والتربية لتتناولهما معًا هنا ؟!

والإجابة أن التعليم بلا أسوار قادم بتطور وسائل الإعلام والاتصال الشبكي والإعلام الجديد والإنتاج بالوسائط المتعددة بما يجعل التعليم ملكًا لجميع الفئات بلا مدارس أو جامعات ، وسيصل الناس إلى اليوم الذي تنقل فيه العملية الجراحية من غرفة عمليات مستشفى الخرطوم عبر الفيديو والتلفزة والشبكة لكل طلاب كليات الطب في السودان كله في آن واحد . محاضرة موحدة يتلقاها الطالب ويتفاعل مع الأستاذ من بيته ، فلن تكون حينئذ كلية تربية أو كلية طب أو كلية إعلام لأن الإعلام لن يكون تخصصًا يدرس في الجامعات وإنما سيكون كل مواطن مغمورًا بركام هائل من التقنيات في بيته ، وستكون غرفة الأطفال أكثر تعقيدًا واتصالاً بالعالم من حولنا أكثر من أستوديو أكبر شبكات التلفزة في عالم اليوم . وحينئذ ستسقط الأسوار فيما بين الكليات والتخصصات ويعود العلم ملكًا لجميع الناس وفي أي مكان وفي أي وقت وبلا ثمن إلا جهد المجتهدين ومثابرتهم للقراءة والاطلاع وجمع المعرفة المرئية المسموعة المنظورة والمقروءة القابلة للاستعادة والنقل والحفظ والإرسال لكل مكان ومن كل مكان.

انتبهـــوا

د. محمد موسى البر

بورتسودان مدينة سياحية

حللتُ على مدينة بورتسودان في شهر ديسمبر لعام ٢٠١٣م وذلك بغرض التدريب في كلية الشريعة – جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية– ولتدريس (كورس) في الاتصال، والتقيت في الدراسات العليا بطلاب وطالبات لهم أعمار متفاوتة حضروا طالبين للعلم والعمل به، فمثلاً في قسم الطلاب كان لي لقاء مع أطباء ومهندسين وإداريين جاؤوا طلبًا للعلم لم تحبسهم الوظائف عن طلب العلم. بورتسودان يقال لها مدينة سياحية فالذي ينزل بورتسودان ويتجول فيها يظن نفسه في مدينة غير سودانية. ذلك لأن المدن التي نزلت بها في السودان شرقًا وغربًا أول ما تشاهده عدم النظام وأكوام من النفايات، أما هذه المدينة فلها وجه جميل ومشرق، تذكرني بالمدن الأوربية كالسويد والدنمارك وبقية مدن الساحل الإسكندنافية، ما الذي يمنع أن تكون مدن السودان الأخرى كبورتسودان ،فهي دعوة للولاة لزيارة هذه المدينة لأخذ العبرة والعظة وكيف أصبحت مدينة بورتسودان بهذا المستوى. إن بورتسودان وجه مشرق للسودان يستقبل القادمين من الخارج، تزين شوراع بورتسودان صور كل من الرئيس البشير والوالي محمد طاهر أيلا مسبوقًا بالحرف (د) وأظنه قد نال الدكتوراه الفخرية. ويبدو أن الوالي وحكومته قد بذلوا مجهودًا لتحويل مدينتهم إلى مدينة سياحية والذي نرجوه أن يؤهل الوالي كل مدن الولاية حتى تصبح ولاية البحر الأحمر ولاية سياحية، فمثلاً مدينة سواكن يمكن أن تكون هي الأخرى مدينة سياحية ومدينة طوكر ، وأقترح أن تكون كل سنة لمدينة ويبذل الجهد المماثل حتى تصبح كل مدن الولاية الكبرى في مستوى بورتسودان وبعدها يمكننا أن نطلق على ولاية البحر الأحمر ولاية سياحية وندعو كل الولاة أن تكون عواصم ولاياتهم مثل مدينة بورتسودان لا سيما ولاية الخرطوم العاصمة . وحق لنا أن نكتب (بورتسودان مدينة سياحية).